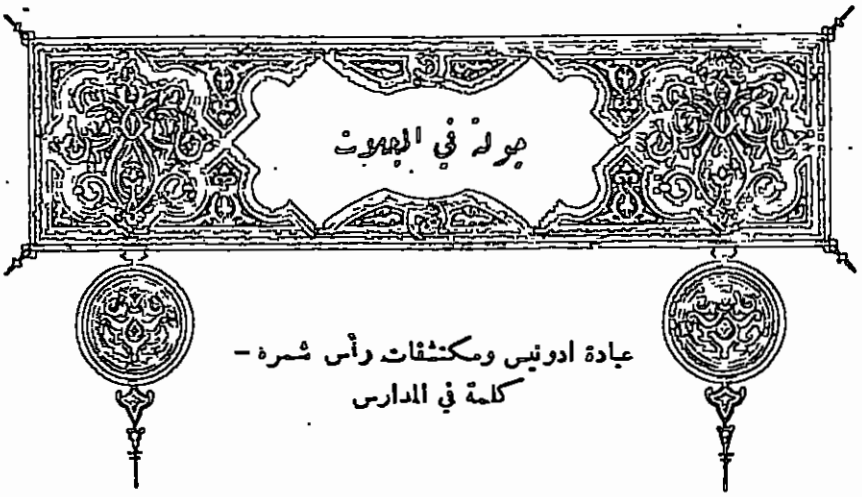

عبادة ادونيس ومكتشفات رأس شمره –
كلمة في المدارس

عبادة ادونيس ومكتشفات راس شمره

عبد الفينيقيون ادونيس بين سائر الهتهم ، وتعلموا عبادته من الكلدانيين ومن المصريين، مقتبسينها عن عبادة اولئك لعشتاروت ، وهؤلاء لاوزيريس . وقالوا ان عشتاروت « الالهة العظيمة » شُغفت بحب « ادون ادونيم » او ربّ الارباب . وحدث ، في زعمهم ، ان خنزيرًا بريًا قتل ادون ادونيم ، فتحولت جثة القتيل الى جذع شجرة الصنوبر ، الى ان سمت عشتاروت فانتشلتها من مخالب المنون . وكانوا يعقدون الحفلات « الادونية » الكبرى مرتين في السنة ، فيذكرون موت ادونيس في اول الصيف ، وقيامته في اول الشتاء ؛ تارة بالبكاء والنحيب ، وطورًا بالفرح والتهليل .

ولهذه الاسطورة مثال في قصة اوزيريس وايزيس الإلهين المصريين : قُتل اوزيريس يد اخيه قتلًا فظيعًا ، ووُضع في تابوت وطرح في البحر ، وحُمل على الموج الى بيبلوس (جبيل) ، فتعلق بين اغصان الطرفاء ، وتجسم فيها ، وصار في حوزة ملك بيبلوس . وجاءت من مصر ايزيس امرأة اوزيريس ، فعرفته وهو في الخشب ، فطلبته من ملك بيبلوس ، وحصلت عليه . والمشاجة بديعية بين ادونيس الفينيقي واوزيريس المصري ؛ وبين ايزيس المصرية وعشتاروت الالهة الفينيقية ، الكلدانية الاصل . وان تلاقي الاله المصري والالهة الكلدانية في ارض سورية ولبنان لَرمزٌ لاحتكاك الشعبين الكبيرين البابلي والمصري في بلادنا . وكانت تطورات عبادات الفينيقيين المقتبسة عن جيرانهم مجهولةً جدًا لقلة ما كان يشعّ على ظلماتها من مكتشفات الآثار ، الى ان جرت حفريات رأس شمره فبرز للنور تعليمات جديدة على ديانة الفينيقيين ، تكلّم السيد ثيرولو عليها في جريدة « العلماء » الفرنسوية (نيسان ١٩٣١ ، ص ١٧١) فقال :

رأس شمره واقعة شمالي فينيقية على مئتي كيلومتر من بيبلوس ، على شاطئ البحر تجاه قبرس . جرت فيها حفريات مرتين فاسفرت عن اشياء

كثيرة ، دالة على تأثيرات مختلفة ، اعني : بابل ، ومصر ، وآسية الصغرى ، والبلاد الميقينية او اليونانية القديمة ؛ وعلمنا انه كان هناك ، في اواخر الالف الثاني قبل المسيح ، مركز تجاري خطير ، متصل بسائر البلدان المجاورة. فقد وجدوا في راس شمره طائفة من مكتبتها القديمة ، وهي كسائر المكتبات البابلية ، مكونة من الواح الآجر ، المنقوشة باحرف مسمارية . على ان تلك الكتابة ليست غامضة ، مستعصية القراءة ، باكتظاظ علاماتها وكثرتها ، شأن الكتابة البابلية القديمة ، بل هي كتابة مسمارية بسيطة جداً ، مركبة من ثمانية وعشرين حرفاً ، ضمت في ابجديتها لغة الفينيقيين بكمالها . ومن المعلوم ان اللغة الفينيقية شديدة الشبه باللغة العبرانية.

وان زهاء اثني عشر لوحاً من هذه المجموعة حوت قطع ملحمة ميتولوجية ، او مأساة جرت حوادثها في عالم الآلهة ، ومن مواقعها الفصل التالي : ألين ابن البعل قضى نحبه . كيف مات ؟ ان الامر لمجهول لان ظلائع الحادثة لا تزال غامضة ... ولكن من الاكيد الثابت ان ألين مات ، والطبيعة باجمعها تتألم لوفاته : انقطع حبل الحياة في العالم ، وامسكت السماء مطرها فاجدبت الاراضي ، وشحت مياه الانهار وجفت غدرانها ، وتوغلت الوحوش الضارية في ظواهر المدن.

وكان الآلهة العظام ، المالكون في السماء ، على بصيرة من الحقيقة ، وهي ان « موت » هو قاتل ألين . فاوفدوا من طرفهم الهة ، وانما هي شقيقة ألين المتوفى ، فقصدت الى «موت» وسألته بالحاح ان يرد لها اخاها. وحاول « موت » التبرؤ من الجريمة ، ورمى عهدتها على غيره ، وقال انه مستعد ان يقوم مقام الذي قضى نحبه . وقال : « ان كان ولا بد من ان انزل في اعماق الارض لاطلب نسمة الحياة التي ستحيي الانسان وتكسو الحقول خضرة ونضارة ، فسوف انزل فيها . وبفضلي سوف تتفشى الصحراء بالاحجار الكريمة وتحمل الرعايا في الارض المزروعة التي كانت الاسود قد احتلتها »

ولكن هذه الكلمات الرائعة لم تهمد غضب الالهة ، فنادت بالويل والثبور ، وصممت النية على الاخذ بثأر اخيها . فهاجمت اولاً قطعان « موت » وفتكت

بها ؛ ثم أغرت كلباً على نتاجه وكلباً على حملانه . وبعد ان بدّدت القطيع حملت على « موت » نفسه ، فقبضت عليه وشقّته شطرين بمنجلها ، واحرقته بالنار ، وطحنته بين حجري رحى ، ونثرت رماده في الحقل .

وصوّرت هذه الخطط طبيعة « موت » الحقيقية . فهو الاله الراعي ، وهو اله النبات ، بل هو النبات بالذات . و« موت » هو السنبلة المحصودة لصنع الخبز ، وهو حبة القمح المحفوظة والمخزونة في غلافها الناعم ذرّة الغلات المستقبلة .

ووجوه المقابلة والمشابهة بين اسطورة « موت » الذي يعود الى الحياة واسطورة ادونيس ظاهرة ، وضّاحة . على ان هناك فرقاً بين الاثنين : فالاول انقلب الى سنبلة والثاني تحول الى شجرة ، ولماذا ؟ قال السيد ڤيرولو :

ظهر اله النبات في رأس شمره بهيئة السنبلة او حبة القمح ، فاصطبغ بلون بلاده لأنّ رأس شمره واقعة في وسط سهل واسع خصيب ، مخصص لزراعة القمح . اما في بيبلوس فالنبات عزّه بالغاب والاحراج ، فلذلك ظهر فيه اله الحياة بهيئة الشجرة . وهناك وجوه التشابه : ان أدّين هو خصم موت ، فيأمر السحاب والرياح والمطر ؛ وهو اله الشتاء الذي ترافقه الوحوش الضارية وما بينها الخنازير التمثية . وها ان ذكر الخنزير ظاهر في اسطورة ادونيس فانه هو الذي فتك به في غابة بيبلوس لما لبس شمار الصياد .

والنتيجة هي انه بفضل الواح رأس شمره الراقي عهدها الى القرن الثالث عشر قبل المسيح تمكن العلماء من الحصول على وسائط جديدة لدرس اسطورة ادونيس وما شاجها من الاساطير الميثولوجية ، فليست من القصص التي تحدث بها البشر ابا عن جد بالكلام فقط بل كانت ثابتة الاوضاع ، مدوّنة بالكتابة منذ عهد رعمسيس . ومنها يتضح ان الشعر نشأ ايضاً بين الفينيقيين وقد نوّه به كتبة الاساطير في العهد الروماني . وان اضفت الى هذه التعليمات ما اظهرته حفريات رأس شمره عن اصل الابجدية الفينيقي الصميم ، وعما يرجى منها من الايضاحات والفوائد الجديدة ، تحققت صدق من اطرأ اهميتها .

كلمة في المدارس

قال صاحب مجلة المعارف (ص ٤٧٣) :

« سألنا سائل عن اكبر المدارس البيروتية واعظمها تأثيراً في الشرق واوفرها

طلبة فنجيب ان الجامعة الاميركية هو [كذا] اكبر مدارس الشرق فيها من الطلبة بهذا العام ١٥٢٥ كما ورد في احصاء الكلية الخ ...»

وأنا وددنا لو اتيح للزميل العزيز ان يكمل تعليماته بمطالبة صفحة نشرة افرنسية تظهر في كلية القديس يوسف اربع مرات في السنة وعنوانها : اخبار الشرق «Relations d'Orient» فقد عُرض فيها (نيسان – حزيران ، ص ١٢٦) جدول قُوبل فيه بين احصاءات الكليتين الاميركية واليسوعية ، واليك الصفحة :

الدارسون في الجامعتين البيروتيتين سنة ١٩٣٠–٣١

	الكلية اليسوعية		الكلية الاميركية
بحسب الاديان	١٧٧٦	المسيحيون الكاثوليك	١١٧
	٨٥٨	المسيحيون الغير الكاثوليك	٦٥٤
	١٠٠	الغير المسيحيين	٧٥٤
بحسب البلدان	٢٥٣٢	لبنان وسورية	٦٢٧
	٣٧	سائر بلاد آسية	٦٦٧
	٣٣	افريقية	٦٨
	٨٨	اوربة	١٠٦
	٤٤	اميركة	٥٧
المجموع	٢٧٣٤		١٥٢٥

وهذا الاحصاء من طرف الكلية الاميركية يشمل تلامذة المعاهد العليا والاستعدادية والابتدائية والمعهد الموسيقي ؛ اما من طرف الكلية اليسوعية فيشمل تلامذة المعاهد العليا والتعليم الثانوي ، والتعليم الاستعدادي ، والتعليم الابتدائي .

وبين ٢٧٣٤ تلميذ يترددون على معاهد الآباء اليسوعيين في بيروت زهاء ثلثهم يتلقون التعليم مجاناً . وعبء تعليم الفقراء والجهّال اتخذته الرهبانية اليسوعية على عاتقها بواجب قوانينها . على ان لهؤلاء بنايات خاصة ، لانه من الصواب والعدل ان تنال كل فئة من الطلاب التعليم الموافق لها ، وفي البيئة المناسبة لحالتها الاجتماعية . هذا في بيروت ، اما في خارجها فاليك بعض احصاءات مدارس الارسالية اليسوعية ، وطائفة عظيمة من تلامذتها تتلقن العلم مجاناً :

في لبنان	٧٤٦٢	
في سورية	٣٨١٨	
في حوران وجبل الدروز	١٧٥٠	
في بلاد العلويين	٣٧٢	
المجموع	١٣٦٠٢	المجموع العام ١٦١٣٦

ف . ت .